22- د.حسين مؤنس – موسوعة تاريخ الأندلس –الجزء الثاني – مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة –الطبعة الأولى 1416هـ - 1996م –ص 383 .
23- نجيب العقيقي– نفس المرجع –صص 294-300/ليفي بروفنسال– نفس المرجع – صص12-14.
24- د. محمد المنوني – نفس المرجع – ج 1 ص 68 .
25- مجهول – "مفاخر البربر" – المخطوط د 1020– الخزانة العامة بالرباط .
26- مجهول – "مفاخر البربر" – المخطوط كـ 1275 – الخزانة العامة بالرباط.
27- مجهول– "مفاخر البربر"– تحقيق عبد القادر بوبـاية – رسالة ماجستير– معهد التاريخ– جامعة وهران– سنة 1996– صص 22-25 .
28- لسان الدين بن الخطيب – "تاريخ إسبانيا الإسلامية" أو كتاب "أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام "– تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال – دار المكشوف – بيروت – الطبعة الثانية –1956م .

منهج ابن باديس الإصلاحي وأثره في بناء الشخصية الوطنية الجزائرية.

د / قلايلية العربي *

"حين انتهت المحادثة كانت الساعة تشير إلى السادسة مساء، وكانت الشمس تغطيها السحب، فوثب الأمير دون أن يلتفت حوله فوق صهوة جواده، وصعد الجبل ركضا، وتبعه شيوخه وعددهم مائة وخمسون...وأقبل علينا بيجو وهو يقول: "ياله من رجل أنوف، ولكني أرغمته على النهوض"، وفي طريق عودتنا كانت تعتمل في نفوسنا مشاعر غريبة، كنا مما شاهدنا كالخدرين وظننا أننا في حلم، وكان الجنرال نفسه مطرقا صامتا، وجواده يسير به.."[1]

هذا ما قاله النقيب السويسري فون مورالت الذي شهد وقائع معاهدة التافنة سنة 1837م التي عقدها الأمير عبد القادر مـــع بيجو، وسجلها لصديقه الألمـــــاني الدكتور موريس فاغنر(1813-1887) [2].

إن الفتـــرة التي تولى فيها الأمير عبد القادر القيادة في الجزائر تعتبر من أحفل فترات المقاومة بطولة وأبعدها أثرا، وهذا ما جعل فرنسا الاستعمارية توجه كل قواها العسكرية والسياسية للقضاء على تلك الأنفة التي كان الشعب الجزائري يتمتع بها.

* أستاذ الأدب العربي بقسم الحضارة الإسلامية –جامعة وهران .

فإلى أي مدى استطاعت فرنسا أن تصل إلى تحقيق أهدافها المتمثلة في القضاء ع
مقومات هذا الشعب؛ وإلحاق الجزائر بفرنسا نهائيا ؟ !

ثم كيف حـــدث البعث من جديد، واستطاع الشعب الجزائـــري أن يعيد بناء شخ
الوطنية، ويحقق الاستقلال النهائي ؟ !

انتهج الجنـــرال بيجو في السنوات التالية لمعاهـــدة التافنة سياسية استعماريـــة خط
مفادها أن الدولة إذا أرادت تثبيت سلطتها في إقليم خارجي، عليها أن تنقل إليه أعـ
كبيرة من عناصرها السكانية، وتمدهم بجميع الوسائل والإعانات، وتعمل عـــلى جعل
هذا الإقليم في خدمة هؤلاء السكان الجدد، كما يوصـــي بإبعاد الجزائـــريين إلى الصح
يقول في تقرير لمجلس النواب الفرنسي في 1840/05/04م:

"يجب أن يهجم أكبر عدد ممكن من الفرنسيين والأوروبيين على الجزائر، ويجب أن تعـ
بمعمرين تمكنوهم من أحسن الوضعيات لكـــي تكسبوهم، وهؤلاء المعمرون يجب أن تعـ
لهم الأرض الخصبة والواقعة على مجاري المياه مـــن غير بحث عمن يملك هذه الأراضي فع
لأنه يجب أن تقسم عليهم قبل كل أحد "[3].

إنها السياسة الاستعمارية الاستيطانية الساعية إلى القضاء على جميع مقومات الشـ
المستعمَر، والحقيقة إن جيوش الاستعمار وقادته منذ دخولهم إلى الجزائر سنة 1830 م سـ
هذا السعي، فلقد أصدرت في فرنسا بتاريخ 1830/12/8م أمرا يقضي بالاستيلاء عـ
الأوقاف الإسلامية رغم تعهدها في 4 يوليو 1830م عند تسلم مدينة الجزائر باحترام الدي
الإسلامي وأوقافه ومعاهدة "[4].

ولقد كان مفكرو الاستعمار ومنظروه يدركون جيدا أن الشعب الجزائري لا يمكـ
التغلب عليه وقهره بسهولة، كذلك تضافرت جهودهم وآراؤهم لتطبيق أسرع الطر
وأنجعها كالقتل والتشريد والتعذيب، والتفرقة بين فئات الشعب، ونشر لغة المستعـ

وعاداته، مستعينين بالمبشرين الذين سعوا سعيا حثيثا إلى نشر الديانة المسيحية واستبدالها بالإسلام الدين الأصيل، ولقد وقف روفيغو في ظهيرة 1832/12/18م قائلا: "يجب أن نتخذ أجمل المساجد في الجزائر معبدا للإله المسيح، وأومأ بيده إلى جامع كتشاوة، وهجم الجيش على الجامع، وهو غاصّ بالمصلين، فدافعوا عنه دفاعا مستميتا حتى قتلوا عن آخرهم، وطليت جدران الجامع بدمائهم، وقام القساوسة يتلون أناشيد الغفران على أشلائهم الممزقة [5].

ولقد كانت مزاعم الاستعمار الفرنسي توهم أنه جاء لتمدين الجزائريين، وإدخالهم إلى عالم الحضارة، والحقيقة عكس ذلك، لقد جاء في كتاب "ليل الاستعمار" لفرحات عباس "أن النائب الفرنسي (Alexis DE Tocqueville) قال في سنة 1847م: "إن المجتمع الجزائري لم يكن غير متمدن بل ما كانت مدينته إلا متأخرة وناقصة، وكان يحتوى على عدد كبير من المؤسسات الدينية مهمتها البر والإحسان ونشر التعليم في جميع أنحاء الجزائر، ولقد استحوذنا على مداخيلها وحرّفنا أهدافها، وقضينا على الجمعيات الخيرية، وخرّبنا المدارس فهُدّت دعائم العرفان، وشتتنا شمل الزوايا...وقد قذفنا بالمسلمين في البؤس والجوع..فسخطوا علينا سخطا كبيرا"[6].

ويؤكد غيره أن الجزائريين الذين كانوا يحسنون القراءة والكتابة في ذلك العصر يفوق عددهم عدد الفرنسيين الذين كانوا يقرؤون ويكتبون، وأن 45% من الفرنسيين كانوا أميين حينذاك، وأن الجزائر احتلها جنود فرنسيون من طبقة جاهلة تمام الجهل، وأن المسلمين في إفريقيا الشمالية كانوا يولون التربية والتعليم عناية لها قيمتها[7].

لقد أحرق الجنرال دوق دومال وجنوده مكتبة الأمير عبد القادر الذي كان يتتبع أثر الطابور الفرنسي مسترشدا بالأوراق المبعثرة في الصحراء التي انتزعها الجنود من الكتب التي عانى الأمير الكثير في جمعها "[8].

وتمضي السياسة الاستعمارية في الجزائر على هدا المنوال، معتمدة على التقتيل والتعذيب والتجهيل ومصادرة الأرضي والأموال، وإفقار الأهالي، وحرق الأرض وسنّ القوانين الجائرة في حق الجزائريين.

وفي مطلع القرن العشرين أخذت الحركات التحريرية في الظهور، فكانت الحركة الإصلاحية في الشرق على يد جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده، قد بلغت شأوا كبيرا في مجال الإصلاح، وكان عبد الحميد بن باديس قد تأثر بالمنهج الإسلامي لمحمد عبده.

وفي سنة 1913م بالضبط يطالعنا الإمام عبد الحميد بن باديس شعلة تنير مدينة قسنطينة فقد نصب نفسه مدرسا ومربيا في الجامع الأخضر بها، يمكننا اعتبار هذا التاريخ بداية غرس النواة الأولى للحركة الإصلاحية في الجزائر عبر مستوياتها الثلاثة: الدينية والسياسة والعلمية (التربوية)، بالإضافة إلى أحزاب سياسية ستظهر في الجزائر بعد هذا التاريخ بمدة قليلة.

لقد قاد عبد الحميد بن باديس حركته الإصلاحية ببراعة وحنكة وذكاء ما يقرب ثلاثين سنة (1913-1940م)، ولقد آلى على نفسه أن يتحمل هذا العبء الثقيل، وكان يؤمن منذ البداية أن أحسن وسيلة إعادة بناء الشخصية الوطنية الجزائرية التي هدمها الاستعمار هي تربية الأجيال وتعليمها وزرع الوعي في نفوسها، وللقيام بهذه المهمة الصعبة سعى إلى إنشاء جمعية بالطرق القانونية في ذلك الوقت حتى يتمكن من تمرير رسالته الإصلاحية، وتحقق له ما أراد في الخامس من شهر مارس 1931م إذ أنشأ "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" والتي كانت نشاطاته وأعماله التربوية والصحافية قد سبقت هذا التاريخ كما رأينا، إذ بدأ التدريس سنة 1913م، وأصدر جريدة المنتقد 1925م.

وربما نتساءل اليوم، لماذا وافقت الإدارة الاستعمارية على إنشاء الجمعية ومنحها الاعتماد؟ والجواب عن هذا السؤال من جهتين: الجهة الأولى، هي أن فرنسا رأت بأن تنظيم

يجمع العلماء لها قد يفيدها ويسهل عليها مراقبتهم وضبطهم والسيطرة عليهم، واستخدامهم لأغراضها، لأنها كانت تنظر إلى العلماء المسلمين الجزائريين من منظار ما ألفته من بعض شيوخ الطرق الصوفية في غالب الأحيان وكانت أمنت جانبهم.

والجهة الثانية: هي أن هذه الجمعية ليست سياسية لأنها ألفت من شيوخ الدين البعد عن السياسية، وأن بنود الجمعية لا تنص على السياسة.

ولكن ما إن تحصلت الجمعية على اعتمادها القانوني حتى شرعت في القيام بنشاطات واسعة عبر الصحف والمجلات، ومن خلال الدروس والمحاضرات التي كان يلقيها علماؤها وعلى رأسهم عبد الحميد بن باديس، كل ذلك وفق منهج منظم محكم، إنه المنهج الإصلاحي الشامل المستمدة أصوله من التراث العربي الإسلامي والواقع الحضاري الجزائري.

لقد سطر ابن باديس الغايات التي يسعى إلى تحقيقها بناء على ثقافته الإسلامية الواسعة ونظرته الشاملة إلى الكون من جهة، وإلى الواقع الجزائري من جهة ثانية.

فهو يرى بأن الكون يسير وفق نظام دقيق منسجم محكم، لابد له من مدبر ومسير هو الله تبارك وتعالى الذي أودع في الكون أسبابا تؤدي حتما إلى مسبباتها بمشيئته، وأن من تمسك بالأسباب بلغ إلى مسبباتها بإذن الله بقطع النظر عن كونه مؤمنا أو كافرا، ورعاً أو فاجراً، صالحا أو طالحاً، ويقارن حال المسلمين في عصورهم الذهبية بحالهم الآن، وما هم عليه من الذل والهوان، ويعزو ذلك كله إلى عدم تمسكهم بتلك الأسباب، فعوقبوا بما هم عليه اليوم من الذل والانحطاط، ولن يعود إليهم ما كان لهم إلا إذا عادوا إلى امتثال أمر ربهم في الأخذ بتلك الأسباب [9].

ولقد سأله نائب عامل عمالة وهران بمدينة مستغانم سنة 1931م عن الغرض من جولته إلى هذه المدينة فقال: "إننا نريد للمسلمين الجزائريين أن يبلغوا في المعارف والفلاحة والتجارة والصناعة إلى مستوى إخوانهم الفرنسيين ليتعاون الجميع بقوى متكافئة على خدمة الجزائر"[10]

فهو يرى بأن العلم هو أساس رقي الشعوب، ولا نهضة بدون علم، ولا علم بدون عمل وحياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها مبنية على أركان ثلاثة: الإرادة والفكر والعمل وصلاح المجتمع متوقف على صلاح الفرد، ولا يمكن إصلاح الفساد والاعوجاج إلا إذا قام أفراد المجتمع وتعاونوا على إزالة الفساد والاعوجاج، لذلك يخاطب الشعب قائلا: "وعلمك على مالك فهو قوام أعمالك، فاسلك كل سبيل مشروع لتحصيله وتنميته، واطرق كل باب خيري لبذله، حافظ على حياتك، ولا حياة لك إلا بحياة قومك ووطنك ودينك ولغتك وجميع عاداتك، وإذا أردت الحياة الكريمة، كن عصريا في فكرك وفي عملك وفي تجارتك وفي صناعتك وفي فلاحتك وفي تمدنك ورقيك [11].

والذي يهمنا بالدرجة الأولى هو منهج ابن باديس الإصلاحي التربوي، فكيف بنى هـذا المنهج وما هـي الوسائل التي أعـدها لتحقيقه ؟

لاشك بأن أي منهج تربوي ينبع من منطلقات أساسية يسميها بعض المربين المحدثين "الغايات"، والمتأمل فكر ابن باديس التربوي والسياسي، يجد أن هذا الفكر يتصف بالعمق والانسجام والموضوعية والمنطقية في طرح القضايا ومعالجتها سواء كانت دينية أو سياسية أو تربوية، وهذا ما جعله دقيقا في رسم غاياته وتحديدها، ولعلّ ما يجسد غايات ابن باديس كلها هو ذلك الشعار الذي كان يضعه على رأس مجلة المنتقد "الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء".

وإذا كان علماء التربية المحدثون يعبرون عن الغايات بأنها فلسفة وتوجهات السياسة التعليمية التي تبنى على مبادئ المجتمع وقيمه العليا وتطلعات أبنائه وتتجسد تلك الغايات في مناهج تربوية حسب المستويات المتتالية [12]، فإن ابن باديس كان يعي هذه الحقيقة، ولنا لنلمس آثار هذه الغايات في جميع الأعمال التي قام بها من مقالات سياسية واجتماعية ودروس في التفسير...

ولئن كانت فكرة النسق أو الترابط باعتبارها مصطلحا تربويا حديثا، وصفت به المناهج. قد ظهرت في الخمسينيات على أيدي مربين وباحثين في مجال التربية أمثال:

Tyler (1950) GlaSer (1965) Gagné (1965) [13]، فإن ابن باديس شعر منذ ذلك الوقت المبكر بضرورة النسق المنهجي في التربية وما يقتضيه ذلك النسق من ترابط منطقي بين المعارف والمستويات، ودقة في تحديد الأهداف، وتدرج في "سجلات" المعرفة حسب المستويات، وفكرة النسق المنهجي لم تكن غريبة عن التراث العربي الذي غرف منه ابن باديس. فإننا نجد ابن خلدون (1332–1406م) وهو يتحدث عن طريق تلقين العلوم ووجه إفادته، فيقسم مراحل التدريس كلها إلى ثلاث مراحل كبرى، ويؤكد على ضرورة التدريج والارتقاء بالمتعلم من مرحلة إلى مرحلة 14، إنما كان في الحقيقة يبني نسقا منهجيا تربويا واضعا في حسبانه التخصص أو الفن كما يسميه، ومستوى المتعلم والطريقة التدريس نفسها، والتدريج في الانتقال من وضعية إلى وضعية مستعملا مصطلحا خاصا به هو "التدريج"، وبهذا يحق لنا اليوم أن نطلق على مجموعة البنيات والعناصر المتفاعلة فيما بينها تفاعلا ديناميا... لتحقيق غايات وأهداف معينة من خلال ذلك التفاعل"[15] "التدريج المنهجي"، واستعمال مصطلح التدريج عند ابن خلدون لا يعني فقط الانتقال من مرحلة معينة إلى مـرحلة أرقى منها حسبما يدل على ذلك ظاهر اللفظ، استعمالها في مجال تلقين العلوم عنده يأخذ دلالات أوسع: منها أنها تدل على المنهج المراد تدريسه في مرحلة معينة من التعليم، وما يحتويه المنهج مـن مفاهيم متعلقة بكل صنف من أصناف المعرفة، وطريقة هذا التعليم، وكيفية إنجازه ومراعاة استعدادات عقـول المتعلمين التي تسمـح لهم بالوصـول إلى الأهداف الـمراد تحقيقها، ثـم الانتقال بـهم إلى المرحلة الموالية.

وتـزداد الفكرة وضوحا عنـد عبد الحميد بن باديس فهو ينظر إلى المنهج باعتباره "مجموع الخبرات التربوية والثقافية والاجتماعية والرياضية والفنية التي تهيئها المدرسة

لتلاميذها داخلها وخارجها بقصد مساعدتهم على النمو الشامل في جميع النواحي وتعد
سلوكهم طبقا لفلسفتها التربوية [16]، فالمنهج يتضمن مجموع ما تقدمه المدرسة من خبرات
خلال مختلف النشاطات التي تقدمها، والوسائل التعليمية التي تستخدمها...

وهكذا فإن بناء المنهج يتطلب عاملين أساسيين هما:

التلميذ بخصائص نموه وحاجاته وكيفية تعلمه، وصحته النفسية والجسمية، وهذا ما يعرف بالأساس السيكولوجي للمنهج.

المجتمع بتراثه الثقافي وقيمه ومعاييره ومشكلاته وآماله وأهدافه الحاضرة والمستقبل وهذا هو الأساس الاجتماعي التربوي للمنهج [17] الذي يجسد الغايات العليا للمجتمع...

فهو يطلب من المعلم أن يراعي "أساليب التفهيم، وفهم نفسية المتعلمين، وحسن التوا لهم والأخذ بأفهامهم إلى حيث يريد بهم حسب درجتهم واستعدادهم"[18].

من هذا النص البسيط يمكننا استخلاص العناصر الأساسية التي تقوم عليها العملية التعليمية برمتها:

فأساليب التفهيم: تشمل الطرق التربوية، وما تتطلب من وسائل مساعدة على الإنجاز.

وتفهم النفسيات: يقتضي معرفة استعدادات المتعلمين وقدراتهم العقلية وقابلياتهم الفكرية التي تؤهلهم لاستيعاب ما يدرسون.

والأخذ بأفهامهم إلى حيث يريد: إشارة إلى تحديد الأهداف ووضوحها، وتوفير الوسائل للوصول إلى تحقيقها وإنجازها.

أما قوله: "حسب درجتهم" ففيه إشارة واضحة إلى "المدونة المعرفية" الخاصة بكل مرحلة من مراحل التدريس.

وهذا الذي يريده بن باديس لا يبتعد كثيرا عن العناصر التي تكون المنهج التربوي عند علماء التربية المحدثين، فهم يرون أن المنهج في جانبه البنائي يضم ثلاثة جوانب أساسية

الأهداف – الوسائل التعليمية–أدوات التقويم [19]، وفي جانبه الوظيفي يشمل كل ما يحتاج إليه لتحقيق الأهداف.

هذه النظرة المتجددة إلى التربية وطرق التدريس هي التي جعلت ابن باديس يثور على شيوخ عصره كما ثار ابن خلدون من قبل على طرق التدريس في المغرب الإسلامي. فهو يرى بأن الطالب بجامع الزيتونة إذا أراد حضور درس في التفسير يقع في خصومات لفظية بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه في القواعد...كأنما التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية. لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية، فهذا هجر للقرآن مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم في خدمة القرآن [20]، إلى هنا يتبادر إلى أذهاننا سؤال عل درجة كبيرة من الأهمية: هل استطاع ابن باديس فعلا أن يضع منهجا حسب المعطيات التي ذكرناها ؟

إن فكر ابن باديس التربوي عميق وأصيل ومتفتح على ما حوله، ويتجلى ذلك من خلال مقولاته العديدة وآرائه السديدة التي رأينا جزءا منها، إلا أن اهتمامات الرجل ومشاغله متعددة ومقسمة على عدة جبهات، ولو أنه كان متفرغا للتربية وحدها لترك لنا اليوم آراء ونظريات لا تقل أهمية عما جاء به علماء التربية المحدثون، ولعل الأيام المقبلة تمكن الباحثين من العثور على وثائق وكتابات في هذا المجال لا زالت في طي الكتمان.

ومع هذا فإننا نجد ملامح هذا المنهج في الدروس التي كان يلقيها في تفسير القرآن الكريم في المسجد الأخضر بقسنطينة، فقد كان ينظر إلى القرآن الكريم باعتباره وحدة متكاملة الجوانب لذلك عكف على تفسيره طيلة 25 سنة متوالية (1913/1938)، والمتأمل اليوم تفسير ابن باديس "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"، تتجلى له ظاهرة الربط والتنسيق واضحة. فقد كان ينطلق في تفسيره من النص القرآني، ويعتمد التنسيق بين المفاهيم والانسجام المنطقي، والربط بين القضايا التي يتعرض لها، والوقع الذي تعيش فيه الأمة الجزائرية وما يقتضيه من علاج.

فالتفسير عنده حي نابض بروح الحياة، أما تقنيات الإنجاز التي يعتمد فهي كما يلي:

يبدأ بشرح الألفاظ الغامضة التي يتضمنها النص القرآني، ثم ينقل أذهان الطلاب إلى الجو الذي نزل فيه النص القرآني، كمناسبة النزول، أو الأحداث التي لها علاقة به.

وينتقل بعدها إلى استخلاص المفاهيم التي يتضمنها النص، سواء كانت عبرا وعظات أو أحكاما شرعية أو مفاهيم مجردة...

وهذه طريقة حديثة أصبحت الدراسات اللغوية تعتمدها، معتبرة النحو عاملا هاما لفهم المعنى لا مجرد قوالب تعلم تعليما آليا.

ومن هنا جاء تفسيره على قصره مفعما بروح العصر، صالحا لمعالجة المشاكل المستجدة على الساحة الوطنية آنذاك.

ومن هنا استطاع أن يحدد أهدافه بدقة عبر مختلف نشاطاته، سواء كانت تدريسا؛ أو خطبا؛ أو محاضرة أو مقالات في الصحف والمجلات.

فالغاية واحدة هي إعادة بناء الشخصية الوطنية الجزائرية في جوانبها الثلاثة:

- الجانب العلمي الذي أساسه المعرفة والفهم.
- الجانب الديني الهادف إلى تربية النفس وتهذيبها.
- الجانب التطبيقي الذي يجسد الأفكار في الواقع .

ولقد رأى ضرورة ربط التعليم بالحياة العملية، فأثناء حديثه عن الدار التي بها جمعية التربية والتعليم بقسنطينة، وكان على رأسها قال: "وأن فيها اليوم مصنعا للنسيج، وقاعة هذه الجمعية ينص عليه، وينص على تعليم اللغة العربية والفرنسية، لأننا قوم نريد الحياة لأنفسنا كما نحبها لغيرنا..." [21].

ولا وجود للأمة بدون علم وتعليم، ولا تقدم لها إلا بالعلم والأخذ بأسبابه، يقول: "ولا أدلّ على وجود روح الحياة في الأمة وشعورها بنفسها ورغبتها في التقدم من أخذها بأسباب التعليم، التعليم الذي ينشر فيها الحياة ويبعثها على العمل، ويسمو بشخصيتها في سلم الرقي الإنساني ويظهر كيانها بين الأمم "[22].

ولنخلص الآن إلى الكيفية التي اعتمدها ابن باديس في تسطير منهجه التربوي لتنظيم التعليم، يمكننا أن نقول إن التعليم في الجزائر كان منقسما إلى قسمين: تعليم رسمي تشرف عليه الإدارة الفرنسية في الجزائر إشرافا فعليا، تنظيما وبرمجة وتخطيطا للوصول إلى أهداف مسطرة مسبقا، وتعليم حرّ في الزوايا والمساجد والكتاتيب، يسير وفق الطرق التقليدية في معظم الحالات، وهو تعليم ديني في جوهره مع اعتنائه ببعض العلوم الأخرى كعلوم العربية، ويمت بصلات القرابة إلى التراث العربي الإسلامي، ولا يمكن الانتقاص من قيمته وأهميته في الحفاظ على الشخصية العربية في الجزائر، والدين الإسلامي بها.

وهذا القسم الثاني هو الذي وجّه إليه ابن باديس اهتماماته، وسعى إلى نشره وإصلاحه وتجديد طرقه ليواكب مستجدات العصر ومتطلبات الحياة...

ولقد بدأ بالاعتناء بالمسجد عندما نصب نفسه مدرسا في الجامع الأخضر، فقد خصّص أوقاتا لتعليم الصغار في آخر الصبيحة وآخر العشية مضافة إلى تعليم الكبار الذي كان معهودا من قبل في المساجد.

ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى استطاعت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن تؤسس عدة مدارس ونواد في أنحاء القطر الجزائري، واستطاعت أن تضع تحت حوزتها عددا كبيرا من المساجد: وبنظرة مقارنة بسيطة بين ما حققته الجمعية في مجال التربية و التعليم وما أنجزته الحكومة الفرنسية نخلص إلى ما يلي:

إن الحكومة الفرنسية بعد مائة عام من احتلالها الجزائر (1930م) أسست ثلاث مدارس إسلامية لدراسة اللغة العربية والشريعة الإسلامية في الوطن كله لا يتجاوز عدد طلبتها الذكور فقط سنويا 500 طالب بمعدل 1 من 10 آلاف نسمة من سكان الجزائر، ورتبت لها المساجد 33 مدرسا في عدد مماثل من المساجد.

والمدارس الحكومية بلغت 652 مدرسة في سائر أنحاء القطر عدد التلاميذ بها 30 ألف طفل تقريبا تعليمهم خال من العربية والدين...

فإذا علمنا أن عدد الجزائريين في هذه السنة حوالي ستة ملايين نسمة، فإن عدد المتمدرسين منهم حوالي 670000 فقط، ويبقى 187000 طفل مهملين لا يتلقون أي تعليم.

أما جهود الجمعية في هذا المجال فهي كما يلي: في مدة حوالي ربع قرن فقط استطاعت مدارس الجمعية أن تحوي حوالي 50 ألف طفل وبنت، وشيدت أكثر من 150 مدرسة، وعلمت كبيرا من النوادي الثقافية والمساجد الحرة في كامل أنحاء القطر [23].

فعلى سبيل المثال نذكر هنا بعض المساجد التي علّم فيها ابن باديس وبعض المدارس التي أنشأها باسم الجمعية: الجامع الكبير، ومسجد سيدي قمّوش، ومسجد سيدي عبد المؤمن، ومسجد سيدي بومعزة، وأخيرا الجامع الأخضر الذي استقرّ فيه وكان قد بدأ فيه التدريس وختم فيه تفسير القرآن الكريم سنة 1938م، كما ختم فيه شرح كتاب "الموطأ" سنة 1939م.

وكان برنامج التعليم عند ابن باديس منقسما إلى قسمين:

- تعليم للكبار، يكاد يكون منحصرا في المساجد، وهو مبني على الوعظ والإرشاد وقائم على أسلوب يساعد الكبار للوصول إلى فهم الحقائق من أقصر طريق.

- وتعليم للناشئة قائم على تنظيم محكم، وبرامج مضبوطة وطرق جديدة.

ومما يدل على اعتناء الجمعية بتعليم الناشئة هو تلك الاجتماعات التي كان يعقدها عبد الحميد بن باديس بنادي الترقي كلما زار العاصمة، ويحضرها العدد الكبير من المعلمين والأساتذة للنظر في البرامج والمناهج وتقويم الطرق والأعمال التي كانوا يؤدونها. وأهم اجتماع عقده ابن باديس في هذا النادي كان يومي 22 و23 سبتمبر 1937م لتبادل الرأي في التعليم ومدارسه ونظمه وأساليبه. [24]

أما طريقة التدريس في منهج ابن باديس فهي كما يلي:

* بالنسبة إلى التعليم المسجدي، وهو تعليم الكبار فيعتمد فيه على الإلقاء والمحاضرة والحوار والاستفهام والمراجعة.

* بالنسبة إلى تعليم الناشئة: فيعتمد فيه في الصفوف الأولى الطريقة الجزئية، والطريقة القياسية في الصفوف المتقدمة.

- أما محتويات البرامج فقط كان يستقيها من الكتب المقررة في المدارس المصرية لذلك العهد، مضافا إليها الكتب التالية: كتاب الموطأ في الحديث للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه- أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك- ابن عاشر في الفقه- المفتاح في البلاغة- القطر في القواعد- الآجرومية في القواعد- لامية الأفعال- ديوان الحماسة- ديوان المتنبي- أمالي القالي- مقدمة ابن خلدون [25].

أما المدرسون الذين كان يستعين بهم، فمنهم من تخرج من الزيتونة، كعبد المجيد بن الحبرش، وحمزة بوكوشة، ومنهم آخرون من كبار التلاميذ المتخرجين كالبشير بن أحمد، وعمر دودو، وبلقاسم الزغداني...

وأما المواد المدرسة فيمكن تحديدها كما يلي: التفسير، الحديث، الفقه، الفرائض، العقائد، الأدب، المواعظ، التجويد، الأصول، المنطق، النحو والصرف، البلاغة، المحفوظات، الإنشاء، الحساب، التاريخ، الجغرافيا... [26].

وكان يلح على المعلمين والأساتذة باللجوء إلى التبسيط، والبدء بالأصول من كل فن والاعتناء بتدريس اللغة العربية وعلومها انطلاقا من النصوص لتنمية الملكة اللغوية واستخدام القواعد للوصول إلى الفهم، وليس لاعتبارها غاية في حدّ ذاتها.... والتركيز على التاريخ والجغرافيا، وبخاصة تاريخ شمال إفريقيا.

النظام: وقد أوجد نظاما للطلبة يتضمن النواحي التالية: التربوية والأخلاقية والغذائية والصحية، وكون جهازا للإشراف العام (لجنة من أعضاء الجمعية).

نظام العرفاء: قسم الطلبة حسب المناطق، وجعل على كل قسم عريفا.

الشروط الواجب توفرها في الطالب: حفظ شئ من القرآن الكريم.

أما الموارد المالية فتتكون من التبرعات التي يقدمها المحسنون، والاشتراكات في الجمعية وصندوق الطلبة الذي أنشئ لهذا الغرض [27].

ولم يكن ابن باديس متشددا ولا متعصبا، فقد كان يدعو المعلمين والأساتذة إلى الاستفادة من كل ذي خبرة ومعرفة...

ويبدو أن نظرته إلى طرق التدريس ومناهجه لم تكن نظرة رضا، فقد انتقد طرق التدريس بجامع الزيتونة، واقترح منهجا متكاملا للتعليم في جامع الزيتونة وبعث به إلى لجنة إصلاح التعليم التي شكلها باي تونس سنة 1931م، ونشر هذا المشروع بجريدة الشهاب تحت عنوان "إصلاح التعليم بجامع الزيتومة"[28].

ويمكن أن نصل إلى أن ابن باديس كان لديه نظرة عميقة إلى التربية والتدريس تختلف عن نظرة أبناء عصره، لولا الظروف القاسية التي كانت تحيط به، منها عدم تفرغه إلى التدريس إذ كانت نشاطات متعددة وموزعة على عدة مجالات، ومنها أن المحيطين به من الأساتذة لم يكن جلهم من حيث العمق المعرفي والتربوي في الدرجة التي كان هو فيها.

إن هذا النهضة العلمية بفروعها الثلاثة: الدينية والمعرفية والسياسية جعلت الإدارة الاستعمارية تناصب الجمعية ورجالها العداء منذ تأسيسها، ولقد كانت عداوة الإدارة للجمعية تزداد على مرّ الأيام، فلجأت إلى المضايقات طورا، وإلى غلق المدارس طورا ثانيا، وإلى اعتقال رجال الجمعية وعلمائها، وأما جرائد الجمعية فقد تعرضت باستمرار إلى الحجز والمصادرة.

لقد بات مؤكدا لدى الإدارة الاستعمارية أن أعمال الجمعية تشكل خطرا كبيرا على الوجود الفرنسي في الجزائر برمته، ولئن كانت الأحزاب السياسية تتناول السياسة فقط، فإن هذه الجمعية أعدّت أجيالا من الكبار والصغار إعدادا وطنيا وحضاريا، وربتها على كره المستعمر.

ولقد كانت التقارير السرية تشير إلى خطورة الجمعية على الوجود الاستعماري، لأنها منذ تأسيسها عمل أفرادها باستمرار على إيقاظ الشعور بالوطنية وتوجيه الناشئة إلى الوعي القومي، ولأن الإدارة الاستعمارية كانت تعي بأن ما أتيح للجمعية من وسائل (كالصحف والنوادي واللقاءات)، والبرامج التعليمية التي سطرتها في المدارس والمساجد التابعة لها ذات خطورة كبيرة على سياستها ووجودها في الجزائر.

جاء في أحد تقرير "إن الإدارة الفرنسية تؤكد خطورة هذه الحركة على السياسة الاستعمارية في الجزائر، وتدعو جميع السلطات إلى اتخاذ الحذر الشديد من قوة العلماء المتصاعدة من سنة لأخرى...". وجاء في تقرير آخر "إن جمعية العلماء رغم ادعائها بأنها لا سياسية، فإنها نواة للأحزاب الوطنية وقاعدة ثابتة ينمو فوقها الشعور الوطني الإسلامي". وفي تقرير ثالث: "إن حركة العلماء الخادعة كانت لينة ودقيقة في آن واحد"[29].

وهكذا كان المنهج الإصلاحي العام الذي انتهجه ابن باديس وأصحابه بفروعه الثلاثة: السياسي، الديني، والتربوي قد أيقظ الحسّ الوطني لدى أبناء الشعب الجزائري.

لقد أبطل ابن باديس بمنهجه التربوي هذا معظم الخطط الاستعمارية وحملات التنص
فهو زارع محبة، ورسول سلام، ولكن على أساس من العدل والإنصاف والاحترام.

غايته في منهجه الإصلاحي عامة هي بناء الشخصية الوطنية الجزائرية كما سبق، ولا تم
هذا البناء إلا إذا تحقق الاستقلال، لأن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا، وق
استقلت أمم كانت دوننا في القوة والعلم والمنعة والحضارة، ولسنا من الذين يدعون عل
الغيب مع الله، ويقولون إن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد، فكما تقلبت الجزائر
التاريخ فمن الممكن أنها تزداد تقلبا مع التاريخ، وليس من العسير، بل إنه من الممكن أن يأ
يوم تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرقي المادي والأدبي، وتتغير فيه السياسة الاستعمار
وتصبح فيه البلاد الجـــزائرية مستقلة استقلالا واسعا تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحرّ عل
الحرّ [30].

فهل حقق ابن باديس غايته ؟

لقد استطاع ابن باديس باعتماده على منهجه الإصلاحي عامـــة، والتربـــوي
خاصة، أن يستعيد تلك الأنفة الجزائرية التي عمل بيجو على استئصالها من الشعب الجزائر
يوم قال عن الأمير عبد القادر: "ياله من رجل أنوف، ولكني أرغمته على النهوض .

وتشاء الأقدار أن يتوفى ابن باديس في 1940/04/16م، وتبقي صيحته مدوية في نفو
الأجيال المتصاعدة، إلى أن احتضنتها ثورة أول نوفمبر 1954م، وتصدق مقولة ابن باديس
التي طالما ردّدها طلاب الجمعية من قبل:

فـــإذا هلكت فصيحتي تحيـــا الجـــزائر والعرب

الهوامش:

1- أبو العيد دودو ، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان؛ الشركة الوطنية للنشر، الجزائر 1975 م.
ص ص 53-54 .

2- المرجع السابق، ص 29.

3- د.تركي رابح، الشيخ عبد الحميد ابن باديس. فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، ش.و.ن.ت، ط.1984، ص25..

4- ابن هوم، دور التبشير والاستشراق في الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر، ماجستير، جامعة دمشق،1986 ص.100

5- المرجع السابق . ص. 104.

6- أنظر د. تركي رابح، ص. 94 –95 نقلا عن ليل الإستعمار لفرحات عباس، ص104.

7- المرجع السابق ص. 95. نقلا عن كتابات الجنرال ولسن استرهازي وإسماعيل أوربان.

8- المرجع السابق ص 97، نقلا عن مرسيل أفريتو الوطن الجزائري ، ص 17.

9- الشيخ ع. ابن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ط1، 1982، دار البعث، قسنطينة، صص89-91.

10- د.تركي رابح...نفس المرجع، ص. 252.

11- المرجع السابق، ص. 252 وما بعدها.

12- محمد الدريج، تحليل العملية التعليمية، ط.2، 1991، الرباط ص60.

13-عبد اللطيف الفاربي، وعبد العزيز الغرضاف، كيف تدرس بواسطة الأهداف، ،سلسلة علوم التربية، الرباط، بدون تاريخ، ص7 .

14- ابن خلدون ، المقدمة، مكتبة عبد الرحمن محمد، مصر، ص. 401.

15-عبد اللطيف الفاربي وعبد العزيز الغرضاف ، البرامج والمناهج ، سلسلة علوم التربية، الرباط، بدون تاريخ، ص 15 وما بعدها.

16-د. تركي رابح، نفس المرجع، ص301 ومابعدها/د.علي اسماعيل محمد، المنهج في اللغة العربية، ط1، مكتبة وهبة القاهرة، 1997، ص37.

17- د.تركي رابح، الرجع نفسه ، ص.302. ، ص. 180.

18- د.عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، دار اليقظة العربية، دمشق، 1968، ص 181..

19- عبد اللطيف الفاربي- البرامج- ص56..

20- د. تركي رابح- نفس المرجع- صص310-311..

21- المرجع نفسه- ص 242.

22- المرجع نفسه- ص244.

23 - المرجع نفسه- صص359-360.

24- المرجع نفسه، صص 331-332.

25- المرجع نفسه، صص 314-315.

26- المرجع نفسه.

27- المرجع نفسه- ص 320.

28- المرجع السابق- ص 333.

29- بن حمو محمد- نفس المرجع- ص 100 وما بعدها.

30- د. تركي رابح- نفس المرجع- صص 232-233، نقلا عن الشهاب، ج 3، مجلد 12، 1936، صص 145-146.

لمحة عن النشاط الإقتصادي في الدولة العباسية

د.غازي حاسم السمري*

عندما اتخذت الدولة العباسية بغداد عاصمة لها، أقبل الناس عليها من كل حدب وصوب،[1] واجتمعت فيها جهود رجال المال والأعمال والدولة على إقامة الأسواق والمنشآت التجارية[2] كما تضافرت المساعي لتوسيع هذه المرافق وزيادة عددها عندما نشطت الحركة التجارية وباتت لا تسد الحاجة.[3]

وتأكد المنصور أن قوة الدولة وزيادة منعتها وثروتها وعزها تتوقف على سعادة أفرادها ورضاهم، لذا أقسم ألا يرهق رعيته بالجبايات[4]، فلم يضع على الأسواق غلة[5] وهكذا ظلت أسواق عاصمة الخلافة معفاة من هذه الضريبة أكثر من عشر سنوات، وبذلك استطاعت خلال هذه الفترة أن تنتعش وتنشط قبل أن تثقل بها عندما استحدثها المهدي[6] (158-168) فكان من جراء ذلك أن أثرت البلاد وأخذ الناس يشعرون بالرخاء، ولا سيما في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، ومما لا شك فيه أن النشاط التجاري له صلة قوية بالرخاء الإقتصادي الذي يعيشه المجتمع عموما.

*أستاذ محاضر بقسم التاريخ وعلم الآثار- بجامعة وهـران.